العدد 3094 - السنة الحادية عشرة
الخميس 29 رمضان 1439 - الموافق 14 يونيو 2018
Thursday 14 June 2018 - No.3094 - 11 th Year

قصص الحيوان في القرآن

غراب قابيل وهابيل: شاهد على أول جريمة قتل في تاريخ البشرية

حكمة الله في لون ريشه الأسود يجعله يتوارى في ظلمة الليل عن أعدائه من البوم والصقور التي تنشط ليلاً وتفترسه

من القصص المعبرة والمثيرة التي قصها علينا القرآن الكريم قصة ابني آدم عليه السلام، تلك القصة التي جرت وقائعها مع بداية الوجود الإنساني على هذه الأرض، والتي انتهت أحداثها بقتل الأخ لأخيه، حسداً وعدواناً.

حاصل القصة

ذكر سبحانه حاصل أحداث هذه القصة في موضع واحد من كتابه الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين × لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين × إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين × فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين × فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين﴾ (المائدة:27-31).

تحليل أحداث القصة

جاءت هذه الآيات عقيب حديث طويل عن رذائل قوم موسى عليه السلام، الذين خالفوا نبيهم، وامتنعوا عن طاعته، والاهتداء بهديه، وقالوا له بكل صلافة وسوء أدب: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ (المائدة:24). فساق القرآن عقيب ذلك قصة قابيل وهابيل؛ تحقيقا عن الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه، وتبيانا أن الذين عصوا أنبياءهم، واعتدوا عليهم، قد اقتفوا الطريق الذي سلكه قابيل الظالم في عدوانه على أخيه هابيل المظلوم.

ومجريات القصة تفيد أن كلاً من قابيل وهابيل قدم صدقة قربة إلى الله سبحانه، فتقبل الله صدقة هابيل؛ لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل صدقة هابيل؛ لسوء نيته، وعدم نقواه، فقال قابيل -على سبيل الحسد- لأخيه هابيل: ﴿لأقتلنك﴾، بسبب قبول صدقتك، ورفض قبول صدقتي، فكان رد هابيل على أخيه: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾، فكان ردّ هابيل لأخيه قابيل ردًا فيه نصح وإرشاد؛ حيث بيّن له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله، ألا وهي التقوى، وصيانة النفس عن كل ما لا يرضاه الله سبحانه. د

ثم إن هابيل الأخ الناصح العاقل- انتقل من حال وعظ أخيه بتطهير قلبه من الحسد، إلى تذكيره بما تقتضيه رابطة الأخوة من تسامح، وما تستدعيه لحمة النسب من بر، فقال لأخيه: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين﴾، فأخبره أنه إن اعتدى عليه بالقتل ظلما وحسدا، فإنه لن يقابله بالفعل نفسه؛ خوفا من الله، وكراهية أن يراد سبحانه قاتلا لأخيه؛ إذ القتل جريمة نكراء شنعاء، ولا سيما إذا كانت من أخ لأخيه ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه وإرشاده؛ إذ أخذ يحذره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته السوداء الهوجاء ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾. بيد أن قابيل لم يرعو لنصائح أخيه، وضرب بها عرض الحائط، ثم انساق مع هوى نفسه، وزينت له نفسه الإقدام على تلك الفعلة الشنعاء، فارتكب جريمته النكراء، فقتل أخاه حسدا وظلما، فخسر دنياه وأخراه، خسر دنياه؛ لأنه قتل أخاه أقرب الناس إليه رحما، والأخ سند لأخيه وعون له، وخسر أخراه؛ لإنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها، على أن قابيل القاتل لم يكتف بفعل تلك الجريمة البشعة، بل ترك أخاه ملقى في العراء، معرضا للهوام والوحوش، ما يدل على قساوة قلبه، وشنيع فعله، بيد أن الله سبحانه لا ينسى عباده الصالحين، فهو يرعاهم بعنايته ورعايته، ويكلؤهم بحفظه وحمايته، فقد بعث غرابا يحفر في الأرض حفرة ليدفن تلك الجثة الهامدة التي لا حول لها ولا قوة من البشر، فلما رأى هابيل -القاتل الظالم- ذلك المشهد، تحركت فيه عواطف الإنسانية، وأخذ يلوم نفسه على ما أقدم عليه، وعاتب نفسه كيف يكون هذا الغراب وهو من أخس أنواع الطيور أهدى منه سبيلاً، فعض أصابع الندامة، وندم ندما شديدا، ولات ساعة مندم.

الدروس المستفادة

تضمنت هذه القصة جملة من الفوائد والعبر: أولاً: أن هذا القرآن من عند الله سبحانه؛ لأن هذه القصة العريقة في القدم، لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم بها، وإنما أخبره الله سبحانه بأحداثها كما أخبره بأحداث غيرها من القصص، كما قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (هود:49)، وذلك لينتفع بها العقلاء بما فيها من هدايات وعظات.

ثانيا: أن تقوى الله وإخلاص النية له قولا وعملا، أساس القبول عنده سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف:110)، وقال أيضا: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة:27).

ثالثا: أن الناس في كل زمان ومكان فيهم الأخيار الأبرار وفيهم الأشرار الفجار، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ (الإنسان:3)، ويمثل هابيل صنف الأخيار الأبرار، ويمثل قابيل صنف الأشرار الفجار.

رابعا: أن رذيلة الحسد إذا تمكنت في النفس، وتأصلت فيها، أوردتها المهالك، وزينت لها البغي والعدوان، والإثم والطغيان، وفي هذه القصة نرى هذا المعنى واضحا تماما؛ فإن حسد قابيل لهابيل كان في مقدمة الأسباب التي حملته على قتله، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة ترتكب على ظهر الأرض، وقد جاء في الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل نصيب من دمها؛ وذلك لأنه أول من سن القتل) متفق عليه. وأخرج الطبري عن عبد الله بن عمرو، قال: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم.

خامسا: أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء، لا يرفع عنه العقوبة؛ لأن هذا الندم أمر طبيعي، يحدث لكثير من الناس في أعقاب ارتكابهم للشرور والآثام. أما الندم الذي يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله تعالى، فهو الذي تعقبه التوبة الصادقة النصوح، التي تجعل الإنسان يعزم عزما أكيدا على عدم العودة إلى ما نهى الله عنه في الحال أو الاستقبال، والتأسف على ما فرط في جنب الله، ورد الحقوق والمظالم إلى أهلها.

تعقيبات حول القصة

وردت في بعض التفاسير جملة أقوال تتعلق بأحداث هذه القصة، لا ينبغي التعويل عليها، ولا يليق الالتفات إليها، وهاك هي في جملتها، وبيان الموقف منها:

أولاً: نقلت بعض الآثار أن الذين قربا قربانا ليسا ولدا آدم من صلبه، وإنما هما رجلان من بني إسرائيل. وهذا النقل غير سديد؛ لأن ظاهر الآية يدل على أن المراد ابنا آدم من صلبه، كما صح في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن هذا القاتل الذي قتل أخاه: أنه أول من سن القتل. وقد أجمع أهل الأخبار والسير والعلم، على أنهما كانا ابني آدم لصلبه، وفي عهد آدم وزمانه، وكفى بذلك شاهدا.

ثانيا: ذكر المفسرون عددا من الأقوال التي دفعت ابني آدم إلى تقديم تلك الصدقة تقربا إلى الله تعالى، وهل كان ذلك بطلب منه سبحانه، أو بمبادرة منهما، أو لسبب غير هذا وذاك، كل ذلك لا دليل عليه من الآية، بل غاية ما فيها أنهما قدما قربانا تعبدا لله، وتقربا إليه.

ثالثا: روى بعض المفسرين أن المراد من قوله سبحانه: ﴿أن تبوء بإثمي﴾ أي: بذنوبي التي فعلتها فيما مضى، وأن المراد بقوله: ﴿وإثمك﴾ أي: إثم قتلي. قال ابن كثير: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب. وقد صوّب الطبري أن المراد من قوله: ﴿بإثمي﴾ أي: بخطيئتك في قتلك إياي، وأن المراد بقوله: ﴿وإثمك﴾ إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله عز وجل في أعمال سواه.

رابعا: نقل المفسرون عدة روايات تتحدث عن طريقة القتل التي قتل فيها هابيل، فذكر بعضهم أنه قتل بصخرة، وذكر آخرون أنه قتل بحديدة، وذكر غير ذلك، وكل تلك الأقوال لا طائل منها، ولا ينبغي الوقوف عندها؛ لأن الآية ساكتة عن كل ذلك، وليس من مقصودها، ناهيك عن ضعف سند أغلب تلك الروايات الواردة في هذا الخصوص. وقد قال الطبري معقباً عن ما نقله من تلك الأقوال ما حاصله: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل قد أخبر عن القاتل أنه قتل أخاه، ولا خبر عندنا يقطع العذر بصفة قتله إياه. وجائز أن يكون قتله على هذا النحو أو ذاك، والله أعلم أي ذلك كان، غير أن القتل قد كان لا شك فيه.

لا يفرط في زوجته أبداً إلا إذا لم يفقس البيض وينفصلان ويبحث كل واحد منهم عن وليف آخر

إذا أصيب أحد أفراده بمرض تأخذ الغربان قراراً بقتله ثم دفنه لعدم انتشار مرضه لباقي الطيور

الغراب

إذا كانت من أخ لأخيه ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه وإرشاده؛ إذ أخذ يحذره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته السوداء الهوجاء ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾. بيد أن قابيل لم يرعو لنصائح أخيه، وضرب بها عرض الحائط، ثم انساق مع هوى نفسه، وزينت له نفسه الإقدام على تلك الفعلة الشنعاء، فارتكب جريمته النكراء، فقتل أخاه حسدا وظلما، فخسر دنياه وأخراه، خسر دنياه؛ لأنه قتل أخاه أقرب الناس إليه رحما، والأخ سند لأخيه وعون له، وخسر أخراه؛ لإنه ارتكب جريمة من أبشع الجرائم وأفظعها، على أن قابيل القاتل لم يكتف بفعل تلك الجريمة البشعة، بل ترك أخاه ملقى في العراء، معرضا للهوام والوحوش، ما يدل على قساوة قلبه، وشنيع فعله، بيد أن الله سبحانه لا ينسى عباده الصالحين، فهو يرعاهم بعنايته ورعايته، ويكلؤهم بحفظه وحمايته، فقد بعث غرابا يحفر في الأرض حفرة ليدفن تلك الجثة الهامدة التي لا حول لها ولا قوة من البشر، فلما رأى هابيل -القاتل الظالم- ذلك المشهد، تحركت فيه عواطف الإنسانية، وأخذ يلوم نفسه على ما أقدم عليه، وعاتب نفسه كيف يكون هذا الغراب وهو من أخس أنواع الطيور أهدى منه سبيلاً، فعض أصابع الندامة، وندم ندما شديدا، ولات ساعة مندم.

الدروس المستفادة

تضمنت هذه القصة جملة من الفوائد والعبر: أولاً: أن هذا القرآن من عند الله سبحانه؛ لأن هذه القصة العريقة في القدم، لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم بها، وإنما أخبره الله سبحانه بأحداثها كما أخبره بأحداث غيرها من القصص، كما قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (هود:49)، وذلك لينتفع بها العقلاء بما فيها من هدايات وعظات.

ثانيا: أن تقوى الله وإخلاص النية له قولا وعملا، أساس القبول عنده سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف:110)، وقال أيضا: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ (المائدة:27).

ثالثا: أن الناس في كل زمان ومكان فيهم الأخيار الأبرار وفيهم الأشرار الفجار، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾ (الإنسان:3)، ويمثل هابيل صنف الأخيار الأبرار، ويمثل قابيل صنف الأشرار الفجار.

رابعا: أن رذيلة الحسد إذا تمكنت في النفس، وتأصلت فيها، أوردتها المهالك، وزينت لها البغي والعدوان، والإثم والطغيان، وفي هذه القصة نرى هذا المعنى واضحا تماما؛ فإن حسد قابيل لهابيل كان في مقدمة الأسباب التي حملته على قتله، وكان هذا القتل من الأخ لأخيه هو أول جريمة ترتكب على ظهر الأرض، وقد جاء في الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل نصيب من دمها؛ وذلك لأنه أول من سن القتل) متفق عليه. وأخرج الطبري عن عبد الله بن عمرو، قال: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب، عليه شطر عذابهم.

خامسا: أن ندم الإنسان على ما وقع منه من أخطاء، لا يرفع عنه العقوبة؛ لأن هذا الندم أمر طبيعي، يحدث لكثير من الناس في أعقاب ارتكابهم للشرور والآثام. أما الندم الذي يرفع العقوبة عن الإنسان عند الله تعالى، فهو الذي تعقبه التوبة الصادقة النصوح، التي تجعل الإنسان يعزم عزما أكيدا على عدم العودة إلى ما نهى الله عنه في الحال أو الاستقبال، والتأسف على ما فرط في جنب الله، ورد الحقوق والمظالم إلى أهلها.

تعقيبات حول القصة

وردت في بعض التفاسير جملة أقوال تتعلق بأحداث هذه القصة، لا ينبغي التعويل عليها، ولا يليق الالتفات إليها، وهاك هي في جملتها، وبيان الموقف منها:

أولاً: نقلت بعض الآثار أن الذين قربا قربانا ليسا ولدا آدم من صلبه، وإنما هما رجلان من بني إسرائيل. وهذا النقل غير سديد؛ لأن ظاهر الآية يدل على أن المراد ابنا آدم من صلبه، كما صح في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن هذا القاتل الذي قتل أخاه: أنه أول من سن القتل. وقد أجمع أهل الأخبار والسير والعلم، على أنهما كانا ابني آدم لصلبه، وفي عهد آدم وزمانه، وكفى بذلك شاهدا.

ثانيا: ذكر المفسرون عددا من الأقوال التي دفعت ابني آدم إلى تقديم تلك الصدقة تقربا إلى الله تعالى، وهل كان ذلك بطلب منه سبحانه، أو بمبادرة منهما، أو لسبب غير هذا وذاك، كل ذلك لا دليل عليه من الآية، بل غاية ما فيها أنهما قدما قربانا تعبدا لله، وتقربا إليه.

ثالثا: روى بعض المفسرين أن المراد من قوله سبحانه: ﴿أن تبوء بإثمي﴾ أي: بذنوبي التي فعلتها فيما مضى، وأن المراد بقوله: ﴿وإثمك﴾ أي: إثم قتلي. قال ابن كثير: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب. وقد صوّب الطبري أن المراد من قوله: ﴿بإثمي﴾ أي: بخطيئتك في قتلك إياي، وأن المراد بقوله: ﴿وإثمك﴾ إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله عز وجل في أعمال سواه.

رابعا: نقل المفسرون عدة روايات تتحدث عن طريقة القتل التي قتل فيها هابيل، فذكر بعضهم أنه قتل بصخرة، وذكر آخرون أنه قتل بحديدة، وذكر غير ذلك، وكل تلك الأقوال لا طائل منها، ولا ينبغي الوقوف عندها؛ لأن الآية ساكتة عن كل ذلك، وليس من مقصودها، ناهيك عن ضعف سند أغلب تلك الروايات الواردة في هذا الخصوص. وقد قال الطبري معقباً عن ما نقله من تلك الأقوال ما حاصله: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل قد أخبر عن القاتل أنه قتل أخاه، ولا خبر عندنا يقطع العذر بصفة قتله إياه. وجائز أن يكون قتله على هذا النحو أو ذاك، والله أعلم أي ذلك كان، غير أن القتل قد كان لا شك فيه.

طائر اجتماعي يتميز بالتفكير واتخاذ القرار الجماعي في الوقت المناسب

تتبع الغربان العائلة الغرابية التي تضم 20 جنسا و116 نوعا من الغربان وأشباهها، وهي إحدى فصائل رتبة العصفوريات أو الجواثم التي تضم نحو 56 فصيلة، وهي أعظم رتبة في تعدد أنواع طيورها، إذ يتبعها أكثر من خمسة آلاف نوع من الطيور.

يبلغ عدد أفرادها أكثر من نصف طيور العالم مجتمعة، أي أنها بمفردها أكبر من باقي رتب الطيور الأخرى مجتمعة. وهي طيور متوسطة الحجم إلى كبيرة تنتشر في جميع أنحاء العالم على اليابسة وتكثر في المناطق المعتدلة وتقل في المناطق الباردة، ومعظمها من الأوابد أي الطيور المقيمة التي لا تهاجر، وقليل منها هو الذي يهاجر. وهو من الطيور المعروفة في كثير من أصقاع العالم، كما تتعدد أنواعه وأشكاله وقصاته، وإن غلب عليه اللون الأسود الذي يطلق عليه الغراب النوحي.

يتميز الغراب بهيبة صوته الذي جعل الناس تتشاءم من رؤيته أو سماع صوته إضافة إلى لونه الأسود الفاحم. والغراب تجذبه الأشياء اللامعة والملونة كثيرا، وليس مستغربا أن يجد الناس في أعشاش الغربان قطعا الصابون الملونة والأشياء المذهبة اللامعة.

يعتبر الغراب من الطيور المفيدة صديقة الفلاح، إذ إن الغراب يتغذى على الآفات والحشرات شأنه في ذلك شأن الهدهد وأبو قردان يتميز الغراب بمستوى ذكاء مرتفع نسبيا مقارنة مع غيره من الطيور، حيث يمكنه أن يستخدم الأدوات، و يبنيها كذلك.

عجائب الغراب

ذكر الغراب في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها تعليم بني آدم كيف يواري سوءة أخيه. وقد درس الأوروبيون الغراب ومجتمعاته، فهو يعيش في جماعات وأسراب. إلا أن زوج الغربان يعيشان طول عمرهما (مثل البشر)، وإذا اقترب ذكر غريب من زوجة الغراب فتقوم بضربه حتى يبتعد عنها.والغربان لا تخاف لا من الصقر ولا من النسر، بل إنها تقترب من النسر حين يأكل من فريسته وتستقر قليلا، ثم تبدأ في مطاردته، فتطير الغربان وتنقض عليه طائرة فيضطر إلى خفض رأسه حتى لا يصدمه الغراب بجناحه أو بذيله. وبعد عدة مرات من تلك المناورة يزهق النسر ويطير تاركا الباقي من فريسته فتأكلها الغربان.

ويراعي زوج الغربان تسليمها في العش ويجلبون لهم المأكولات. وإذا حام بالقرب أحد الصقور تجد ان الأبوين يتطلقان في عنان السماء ويبدان مطاردة الصقر طيرانا حتى يختفي من المنطقة، ويبتعد الخطر عن تسليمها. ومن عجائب الغراب ان انثى الغراب اسمها حداة وفرخ الغراب يسمى النَعّاب واذا فقس عن البيضة يكون لونه أبيض فينكرة ابواه ويتركانه لانه لايطابق لونهم فيأتي البق نوعا من الدود فيقف على منقار فرخ الغراب تعجبة ريحة منقاره فيأكل منها حتى ينبت ريشة ويسود فاذا اسود ريشة يأفه ابواه ويقبلون عليه ويعطونه الحب

التزاوج

في أواخر الشتاء عندما يصل الذكر لسن البلوغ (4 سنوات تقريبا) يبدأ بالبحث عن شريكة حياته ويبدأ الرحلة بإصدار صوتا مرتفعا ينادى به على الإناث البالغة (3 سنوات تقريبا) إلى أن تقترب واحدة منه فيبدأ بنفش ريش جسمه واجتحته وذيله قليلا كعلامة منه على قبولها ثم يبدأ في الغناء لها اغنية قصيرة ثم يحدث الزواج بينها ويبدأ كلا منهما في تنظيف ريش الآخر وتجهيز وبناء العش والذي يستغرق تكوينه حوالي اسبوعين، وبعد ان يصبح عش الزوجية جاهزا لهما تبدأ الأنثى في وضع البيض حوالي من 2:6 بيضات خلال أسبوع ثم يفقس البيض بعد حوالي 19 يوم وتظل الصغار بعد الفقس من 30:45 يوم في العش قبل التريش ثم بعد ذلك تبدأ في الطيران ومساعدة الأبوين في الحصول على الغذاء وتجميعه. ولا تضع الأنثى بيضا آخر خلال السنة، فهي مرة واحدة فقط سنويا. مهمة الأنثى الأساسية هي حضانة البيض حتى الفقس وإطعام الصغار بعد الفقس. اما الذكر فمهمته الأساسية حماية العش من الأعداء حيث يقف على حافته لمنع دخول أي ذكر غريب من مجلم آخر وإذا دخل عشه يقوم بقتله. وكلاهما أيضا يقوم بالبحث عن الغذاء وجلبه إلى العش.

واكتشف الباحثون أن الغراب بإمكانه التعرف على وجوه البشر، ليس ذلك و فقط بل يصنفهم إلي بشر جيدين، و بشر سيئين.

نطيره

... في الهواء